مجلة الذاكرة EISSN :2676-1734 ISSN: 2335-125X
مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2021 رقم العدد التسلسلي: 16

العجائبي في الأدب الجغرافي العربي

الأنماط والمقاصد

The fantastic in Arabic geographical literature

Types and Intentions

د/عادل ايت العسري
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية–مراكش
جامعة القاضي عياض(المغرب)
aitelasriadil@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/08/08	2020/08/20	2021/01/05

الملخص:

يعد علم الجغرافيا من الفروع المعرفية التي ظهرت متأخرة عند العرب قياسا بالعلوم اللغوية أو الدينية، وقد انقسم ذلك العلم إلى ثلاث اتجاهات رئيسة أحدها علم الجغرافيا الوصفي الذي يمتزج فيه ما هو علمي بما هو أدبي سيما ما يتعلق بالجانب العجائبي. ويندرج كتاب ابن الوردي الذي يحمل عنوان خريدة العجائب وفريدة الغرائب ضمن هذا الاتجاه الجغرافي. وهو كتاب يمتاز باهتمام صاحبه بجمع جميع الأخبار المتعلقة بالمدهش والغريب التي تميز البلدان البعيدة، وهي جوانب تخلق حالة من الشك والارتياب في نفس المتلقي؛ لأنه يجد نفسه إزاء أخبار وأوصاف لا تحتمل التصديق. وستسعى الدراسة الحالية إلى تحديد مظاهر العجائبي في الكتاب المذكور فضلا عن تحديد الأسباب التي دفعت الكاتب إلى توظيفه.

كلمات مفتاحية: علم الجغرافيا، العجائبي، ابن الوردي.

Abstract:

Arabic geographical knowledge was very limited compared to other branches such as linguistic or religious sciences. From the eleventh century, a real geographic literature written in Arabic developed. This discipline is divided into several fields, one of which is descriptive geography characterized by a marriage between what is scientific and what is literary, in particular what is linked to the fantastic aspect. Ibn al-Wardi's book, Kharietat al-Aujayd and Farida al-Gharibah, fits into this geographic trend. The current study will seek to determine the miraculous aspects of the aforementioned book, as well as the reasons that prompted the writer to use it.

Key words: Arab geography, fantastic, Ibn Al-Wardi

مقدمة

اتسمت حياة العرب في الجاهلية بالاستقرار نظرا لاشتغال غالبيتهم بالزراعة أو الرعي، وكانت حاجتهم إلى الكلاء، في فصلي الخريف والشتاء، سببا لترك منازلهم بحثا عن الماء لكن هذا البحث ظل في حدود ضيقة. وقد كان للتجارة دور رئيس في انفتاح العرب على الأمم القريبة منهم، وهو ما حتم عليهم التنقل من شبه الجزيرة العربية إلى أراض ودول جديدة بيد أن مدى تلك الحركة التجارية لم يصل إلى بقاع بعيدة، ولذلك ظلت« معرفة العرب الجغرافية قبل الإسلام محدودة للغاية، فلم تتعد معرفة البلاد المجاورة لهم كالهند وإيران وتركيا والشام ومصر والحبشة والعراق »[1].

كان للفتوحات الإسلامية دور بارز في النهوض بعلم الجغرافيا عند العرب، حيث كان المسلمون في أمس الحاجة إلى معرفة المسالك البرية والبحرية فضلا عن الإلمام بالخصائص الطبيعية للأمم المجاورة التي كانت تستهدفها الفتوحات غير أن البداية الفعلية لذلك العلم تأخرت إلى حدود النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي في العصر العباسي، وكان للترجمة دور أساس في ذلك؛ فقد« شهدت هذه المرحلة الجغرافيين المسلمين وهم يعكفون على ترجمة الكتب الجغرافية الجيدة، ويتفرغون لاستيعاب الفكر اليوناني المهجور، ثم شهدتهم مرة أخرى ينبرون للكتابة الجغرافية، ويدلون بدلوهم في الإضافة إلى الفكر الجغرافي»[2].

وقد توزعت المصنفات الجغرافية التي ألفها المسلمون بين ثلاثة اتجاهات رئيسة، وهي: الجغرافيا الفلكية والرياضية، الجغرافيا الوصفية ثم الجغرافيا التفسيرية[3]، وقد امتاز الاتجاه الثاني (الجغرافية الوصفية) عن الاتجاهين الآخرين بتحرر أصحابه من النزعة العلمية الصارمة بحكم اقتران التأليف الجغرافي الوصفي بقصص الرحلات وبالأدب الفني[4]، حيث كان السرد[5] عنصرا جوهريا في العديد من المؤلفات الجغرافية، ولما كان السرد و الوصف مترابطان[6]، فقد تميزت العديد من المؤلفات الجغرافية بجمع الأخبار و« بوصف المجموعات البشرية المدروسة سواء من الناحية الخُلقية والخَلقية و بالأهمية التي تمنحها لعجائب الطبيعة، وللعادات المستغربة لدى الشعوب البعيدة»[7].

كانت الموسوعية وعدم التخصص سمة مميزة للعديد من المصنفات التراثية؛ فلم يكن المؤلفون العرب القدماء يقيدون أنفسهم دائما بحدود المجال أو الموضوع الذي يعلنون عنه في عناوين كتبهم، كما أنهم كانوا ينوعون في أساليب عرضهم للقضايا التي يعالجونها بما يتناسب مع طبيعة الموضوع وتشعبه، وتعد كتب الجاحظ خير مثال على ذلك. ولم يكن هذا الأمر خاصا بالكتب الأدبية بل إن العديد من الكتب العلمية تلونت بصبغة أدبية من خلال اعتماد مؤلفيها أسلوب السرد في ثنايا كتبهم، ينطبق هذا الأمر على كتب التاريخ والجغرافيا والتفسير التي يمكن النظر إليها على أنها «أعمال حكائية واضحة الملامح كالحكايات العجيبة والقصص والسير»[8].

يعد كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب أحد أبرز المؤلفات الجغرافية العربية الوصفية في القرن الخامس عشر ميلادي، وقد ألف ابن الوردي (ت 861 هـ)هذا الكتاب« تلبية لأمر السلطنة الشريفة بالقلعة المنصورة، وجعله شرحا للخريطة التي رسمها له، بحيث يصعب الفصل بين الكتاب والخريطة»[9]، ولكن قارئ الكتاب، قبل الاطلاع على الخريطة أو المتن الشارح لها، يلتقي بعتبة العنوان التي تولد لديه مجموعة من الفرضيات المتعلقة بمضمون النص وبالمسار الذي ستسلكه القراءة، ولذلك يمكن القول إن عنوان الكتاب يكشف أن الموضوع الرئيس لابن الوردي ليس

هو الحقائق الجغرافية أو ما يتصل بها من أخبار البلدان بل التركيز على العجيب والغريب.

ارتبط التنظير للأدب العجائبي بالنقد الغربي الحديث، غير أن هذا المصطلح ظل مستعصيا على التحديد[10]، ويعد تودوروف من أبرز النقاد الذين اقترحوا مقاربة دقيقة للعجائبي في النصوص الأدبية حيث جعله رهينا بثلاثة شروط «أولا أن يحمل النص القارئ على اعتبار عالم الشخصيات كعالم أشخاص أحياء وعلى التردد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق–طبيعي للأحداث المروية...أخيرا ينبغي أن يختار القارئ موقفا معينا تجاه النص»[11]، وهذه الشروط الثلاث من شأنها أن تجعل العجائبي جنسا متلاشيا لا يحيا إلا في لحظة التردد التي يعيشها القارئ عندما يجد نفسه إزاء ظواهر تخلخل أفق توقعاته بحكم طبيعتها المفارقة لما هو مألوف، فإذا قرر المتلقي «أن قوانين الواقع تظل غير ممسوسة، وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة، قلنا إن الأثر ينتمي إلى جنس آخر: الغريب. وبالعكس، إذا قرر أنه ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن أن تكون مفسرة من خلالها، دخلنا عندئذ في جنس العجيب»[12]، ولذلك كانت دورة حياة العجائبي قصيرة نسبيا لا تتجاوز لحظة التردد المؤقت الذي يتخلص منه المتلقي بعد اتخاذه قرارا يفسر على ضوءه الأحداث التي تحيره، وهكذا يمكن القول إن«(الغريب) وكذلك (العجيب) قرار يتخذه المتلقي، أما العجائبي فتردد وعجز عن اتخاذ القرار»[13].

إن قارئ خريدة العجائب وفريدة الغرائب كثيرا ما يجد نفسه في حيرة وتردد نتيجة تضمين ابن الوردي كتابه مجموعة من الأخبار والحكايات العجائبية التي لا يقبلها العقل، وامتزاج تلك الحكايات والأخبار بالحقائق الجغرافية العلمية يجعل المتلقي في حيرة من أمره؛ إذ لا يمكن القطع بصحة تلك الأخبار، كما لا يمكن إنكارها في الوقت نفسه سيما أنها وردت في كتاب معرفي يتسم بالجدية.

أولا–أنماط العجائبي في خريدة العجائب

1-الفضاء العجائبي

يعد الفضاء المحور الرئيس في كتب الجغرافيا، إذ يسعى الجغرافيون إلى الإحاطة بكل ما يتصل بالحيز المكاني الذي يدرسونه سواء من ناحية أبعاده أو موقعه أو مكوناته، ويلاحظ أن العجائبي في كتاب ابن الوردي، بتجلياته المختلفة، ارتبط في الغالب بفضاء عجائبي؛ «لأن العجائبي المتمثل في الظهورات والهواجس والاستيهامات والصور والمواقف والأحداث يحتاج في تجليه إلى أمكنة، هذه التي يجب أن تتلاءم مع طبيعته المرعبة أو المعجزة والمثيرة للتساؤل أو التردد»[14].

أ-الفضاء الكنز

تستمد بعض الفضاءات طابعها العجائبي من طبيعة تكوينها بما تشتمل عليه من معادن نفيسة، وإذا كان وجود هذه الأخيرة أمرا مألوفا في بعض المناطق، فإن تواجدها بكميات كبيرة وبروزها للعيان من الأمور التي تثير الحيرة والدهشة لدى المتلقي الذي قد يشك في وجود مثل هذه الأمكنة؛ لأن العادة جرت أن تكون المعادن النفيسة مستقرة في باطن الأرض، يحتاج الوصول إليها إلى ضرب من المشقة، وحتى لو تم الاهتداء إليها فإنها لا توجد إلا بكميات محدودة.

قد يكون الكنز، حسب ابن الوردي، مستترا ومخزنا في باطن الأرض أو في أماكن حصينة، لا تدركه الأبصار منذ الوهلة الأولى كما هو الحال بالنسبة لأرض مصر التي «يقال إن غالب أرضها ذهب مدفون حتى قيل إن ما فيها من موضع إلا هو مشغول بشيء من الدفائن» [15]، وبهذا البلد يوجد أيضا جبل المقطم «وفيه ذهب عظيم... وفيه كنوز وهياكل وعجائب غريبة»[16]، وهناك من زعم أن بداخل «الهرم الغربي ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملونة مملوءة بالجواهر النفيسة والأموال الجمة»[17].

هناك فضاءات أخرى تبرز فيها الكنوز للعيان كما هو الحال بالنسبة لجزيرة النساء التي يقال «إن الذهب في أرضها عروق كعروق الخيزران، وترابها كله

ذهب»[18]، وهناك جزيرة أخرى «حجارتها ووهادها وترابها كلها ذهب»[19] بل هناك جزرا جاء اسمها دالا على ما اشتملت عليه من نفائس وهو ما ينطبق على جزيرة الياقوت[20]. ويبدو أن وفرة المعادن النفيسة قد سمحت بتشييد بنايات بأكملها، فجاءت تلك البنايات في صورة مدهشة لا يتصور العقل وجودها، وهذا هو حال أحد الحصون بأرض الأحقاف الذي شيدت داخله «قصور شاهقة، وكل قصر منها معقود على عمد من زبرجد وياقوت، وفوق كل قصر منها غرف، وفوق الغرف غرف أيضا وكلها مبنية بالذهب والفضة مرصعة باليواقيت الملونة والزبرجد واللؤلؤ»[21].

وهكذا يتبين أن الفضاء الكنز يقع بين قطبي التجلي والخفاء، وفي كلتا الحالتين فهو فضاء تتوق له الأنفس سيما حينما يتم وصفه بضرب من المبالغة، وهذا ما ينطبق على جزيرة الواق واق التي يوجد بها «ذهب كثير بلا وصف حتى إنهم يتخذون سلاسل الكلاب والدواب من الذهب»[22]، والأمر نفسه يتكرر في مدينة مجهولة الاسم بأرض الواحات بمصر التي يزعم بعض الرواة أن بها «من الذهب وغيره ما لا يكيف ولا يوصف»[23].

إن هذه الأخبار تجعل المتلقي في حيرة من أمره بخصوص صحتها، وهو إذ يتوق إلى رؤية مثل هذه الأماكن، فإنه يظل مترددا بين تصديق تلك الأخبار وتكذيبها سيما أن العديد من الأماكن المذكورة لم تحدد باسمها الصريح، وإنما اكتفى الراوي بالإشارة غير الدقيقة إلى مكان وجودها (جزيرة الياقوت) كما أن بعض الأماكن ظلت متمنعة عن الوصول بسبب تحصينها أو لأنها اختفت من الوجود ولم يعد لها أي أثر، وأصبحت أقرب إلى المدن الخرافية (مدينة هرمس)[24].

ب-الفضاء المهلك والفضاء الآمن

- **الفضاء المهلك**

تعد المخاطر جزءا لا يتجزأ من حياة الرحالة الذين يقتحمون عوالم جديدة مجهولة، وقد يتحول الخطر إلى تهديد حقيقي بالموت والهلاك، ومن بين البقاع التي اشتهرت بخطورتها جزيرة الطويران التي تتميز بوجود شجرة عظيمة لا مثيل لها، تثمر أنواعا

مختلفة من الثمار اللذيذة، وقد أغرت هذه الشجرة بعض أصحاب ذي القرنين، «فجمعوا من ثمرها شيئا كثيرا ومن أوراقها ليحملوا ذلك إلى ذي القرنين، فضربوا على ظهورهم بسياط مؤلمة، يحسون بوقع السياط ولا يرونها ولا يدرون من الضارب»[25]. وقد يكون الخطر معروفا، ومصدره ظاهرا للعيان كما هو الحال لجزيرة الدهلان التي يروي البحارة أن بها كائنا غريبا «يأكل لحوم الناس، إذا طلع أحد من المراكب إلى تلك الجزيرة، أخذهم ودفعهم إلى مكان لا خلاص لهم منه وأكلهم واحدا بعد واحد»[26].

يشكل الموت صفة ملازمة لبعض الفضاءات العجائبية حتى أنها أضحت أماكن مهجورة وغير صالحة للعيش؛ فأرض الخراب إنما سميت بهذا الاسم؛ لأن «من دخلها وقع في المهالك»[27]. وإذا كان ابن الوردي لم يحدد نوع المهالك التي تتهدد من دخل تلك الأرض، فإنه، أحيان أخرى، كان يذكرها ويحددها ليكشف عن طابعها العجائبي؛ ففي بركة ماء وسط جبل مرغان «تخرج ريح جاذبة للمعترض لها، فتأخذه إلى داخل المغارة»[28]. وقد يتحول مصدر الهلاك إلى اسم مميز للفضاء العجائبي كما هو الشأن بالنسبة لجزيرة السحاب التي «يطلع عليها سحاب أبيض...يخرج منه لسان طويل.. فإذا أدرك المراكب ابتلعها»[29].

هناك أماكن تكون آمنة لكنها قد تتحول–نتيجة حافز ما– إلى فضاء مهلك وقاتل، وهو ما ينطبق على عين جاج التي اشتهرت بمياهها النقية الطاهرة، فإذا حدث أن ألقى أحدهم فيها نجاسة أو لوثها، هاج الماء واضطرب وعلا ثم لحق بالمذنب حتى إذا أدركه أغرقه[30]. وقد يكون الفضاء المهلك أشبه بالفخ كما هو الحال للقصر الأبيض البلوري الذي تستدرج أنواره الغرباء حتى إذا حلوا به غلب عليهم الخدران والنوم، وعجزوا عن الحركة، فلا تعود لهم القدرة على الخروج، فيهلكون[31].

- **الفضاء الآمن**

إن الفضاء العجائبي الآمن لا يتسم بخلوه من الأخطار بل هو مكان يتوقع المرء أن يتعرض فيه المرء للموت أو الأذى غير أنه لا يهلك وينجو بأعجوبة، ويلاحظ أن هذه السمة اقترنت عند ابن الوردي بالأنهار دون اليابسة، وكثيرا ما

كان ينعت تلك الأنهار بأنها أنهار مباركة، ومن بينها نهر دجلة الذي عثر فيه أناس على غريق «فأخذوه فإذا فيه رمق، فلما رجعت إليه روحه إليه سألوه عن مكانه الذي وقع منه، فأخبرهم، فكان من موضع وقوعه إلى موضع نجاته خمسة أيام»[32]، و الحكاية نفسها وقعت في نهر الكرّ الواقع بين أرمينية و أذال، حيث عثر الناس على غريق في النهر قبل أن يلفظ أنفاسه، فأنقذوه،« فلما رجعت إليه روحه قال: في أي موضع أنا؟ قالوا: في نقجوان. قال: إني وقعت في الموضع الفلاني. فإذا مسيرة ذلك ستة أيام»[33].

هناك نهر آخر كثيرا ما ينجو غريقه، وهو نهر المرس الذي يقع بأذربيجان، وما يميزه هو كثرة حجارته سواء الظاهرة منها أو المغطاة بالماء، ولذلك كانت السفن تتجنب عبوره خشية الارتطام بصخوره[34]، ومن الأخبار العجائبية المتصلة بهذا النهر حكاية المرأة التي عبرت رفقة رضيعها القنطرة المشيدة على ذلك النهر، فإذا بها تفلت يد صغيرها، فوقع في النهر لكنه ظل طافيا على سطح الماء حتى جاء عقاب، فرفع الطفل بقماطه، وطار به ثم وضعه على اليابسة، فأدركه الناس، فهرب العقاب، ووجدوا الطفل سالما هادئا ليس به أي أذى[35].

ج-الفضاء المستتر

يشمل الفضاء المستتر الأمكنة التي تظهر ثم تختفي، ويمكن تقسيمها، تبعا لمدة اختفائها عن الأنظار، إلى فضاءات تكون مدة اختفائها محددة وهذا هو حال جزيرة الديرة التي ذكر بعض البحارة أن بها ديرا غائبا في البحر ينكشف «عنه الماء يوما في السنة، وتحج أهل تلك النواحي إليه، ويبقى ظاهرا إلى وقت العصر، ثم يزيد الماء، فيغطيه إلى العام القابل»[36]، وقد تقصر مدة الاختفاء لتعادل نصف سنة كما هو الشأن بالنسبة لجزيرة القامس التي «تغيب بأهلها وجبالها وجهاتها ومساكنها ستة أشهر وتظهر ستة أشهر»[37].

يصعب في بعض الأحيان تحديد مدة اختفاء بعض الأمكنة؛ لأنها لا تظهر إلا صدفة ثم تختفي بعد ذلك مدة مجهولة قد تطول أو تقصر دون أن يتنبأ أحد بمكان ظهورها أو زمانه، وهذا حال منطقة شنترية التي يدعي بعضهم أن« بها مدنا عظيمة مطلسمة من أعمال الحكماء والسحرة، ولا تظهر إلا صدفة» [38]، وهناك أمكنة أخرى أشبه بالسراب فهي ظاهرة ومحتجبة في الوقت نفسه، وصعوبة الوصول إليها يجعلها في حكم المختفية على الدوام، ومن الأمثلة عليها جزيرة الصريف التي تلوح للبحارة،« فيطلبونها وكلما قربوا منها تباعدت عنهم، وربما أقاموا لذلك أياما كثيرة، فلا يصلون إليها، وقيل إن أحدا منهم لم يدخلها قط» [39].

هـ-الفضاء الشافي

يتميز الفضاء الشافي بقدرته على علاج المرضى سواء تواجدوا في نطاقه الجغرافي أم لا، فمدينة حمص اشتهرت بأنها متمنعة على العقارب والحيات بل إن ترابها إذا حمل إلى خارج البلاد، ووضع على لسعة عقرب، شفي صاحبها وبرأ [40]. وقد يتعين على المريض التنقل إلى الفضاء الشافي بنفسه؛ لأن الخاصية العلاجية تتعطل بمجرد تجاوز الحدود الجغرافية لذلك الفضاء، وهذا هو حال معبد براق في نواحي مدينة حلب، فهذا المعبد يشكل قبلة للمصابين بجميع الأمراض الذين يقصدونه، فيقضون بعض لياليهم فيه «وينامون به؛ فإما أن يبصر المريض في نومه من يمسح بيده فيبرأ، وإما أن يقال له استعمل كذا وكذا، فإذا أصبح واستعمله فإنه يبرأ» [41].

ولا تقف الخاصية الاستشفائية للمكان العجائبي على علاج الأمراض المختلفة بل إنه قد يمتلك قدرة على تحصين الفرد منها قبل أن يصاب بها، وينفرد نهر نمامة بهذه الخاصية العجائبية؛ إذ يقصده الناس رفقة أطفالهم، «فيغمسونهم فيه قبل البلوغ والاحتلام، فلا يصيبهم بعد ذلك من أمراض الدنيا شيء البتة، إلا ما جاء من قبل الموت»[42].

و-الفضاء المؤثر في الطباع البشرية

لا يقتصر تأثير الفضاء العجائبي في الإنسان على الجانب الجسدي بل يشمل أيضا الجانب النفسي، وذلك في غياب أي تفسير عقلي لذلك التأثير، وتعد رقادة بأرض المغرب الأقصى نموذجا على ذلك، فقد «ذكر أهل الطبائع أنه يحصل للرجال بها الضحك من غير عجب، والسرور من غير طرب، وعدم الهم والنصب، ولا يعلم لذلك موجب ولا سبب»[43]، ومن الأماكن التي تدخل السرور على زوارها قصر عظيم بجبال الهند، كل من قصده «ومشى نحوه يجد في نفسه طربا وسرورا.. ويقال إن من تعلق بهذا القصر، وصعد إلى أعلاه ضحك ضحكا شديدا»[44].

هناك أمكنة أخرى لا تدخل البهجة أو السرور فقط على من دخلها بل تعمل على تثبيت حالة نفسية معينة، ففي جبل طبرستان يوجد عشب عجائبي يدعى جوز مائل، من قطعه وهو حزين بقي كذلك طيلة حياته، ومن جاوزه وهو ضاحك ظل ضاحكا حتى آخر أيامه، وبالجملة كل من مر على صفة ما بقيت ملازمة له الدهر كله[45].

يمكن أن ندرج ضمن الفضاء العجائبي بعض الأمكنة العادية التي تفقد بعض مكوناتها خاصيتها العجائبية بمجرد تجاوزها لحيزها الجغرافي الأصلي، وكأن تلك المكونات تستمد عجائبيتها من المكان الذي تنتمي إليه، وهذا ما تشهد عليه تلك الورود التي توجد بجزيرة الزنج، فهي ورود تتمتع بمنافع كثيرة غير أنها تحترق بمجرد إخراجها من الجزيرة المذكورة[46]. والأمر نفسه ينطبق على ثمار جزيرة الشجر التي تشفي جميع الأمراض، فقد حاول بعض ملوك الهند زراعتها ببلادهم لكنها لم تثمر، وهناك عين ماء مسماة أدرند بهسند بإحدى قرى قزوين التي يخرج منها ماء عذب يسبب لصاحبه إسهالا مفرطا، فإذا حمل ذلك الماء خارج القرية انتفت خاصيته المذكورة[47].

2-المخلوقات العجائبية

أ-الشخصيات العجائبية

يصادف قارئ خريدة العجائب شخصيات عجائبية يثير وصفها الدهشة والحيرة لكونها غير مألوفة، فـ« عجائبيتها تكمن في تكوينها الذاتي وطريقة تشكيلها لما هو مألوف»[48]، وتكمن عجائبية بعض الشخصيات في جمعها بين ما هو بشري وما هو حيواني،« فالاختلال والاختلاط بين ما هو حيواني، وبين ما هو إنساني، بين ما هو مفهوم وملتبس من الجسد بما هو ملغز فيه، يجعل تصوره المقلوب والمشوه من أهم موضوعات العجائبي »[49]، ويلاحظ أن أغلب الشخوص التي تشبه الآدميين تستقر بالجزر البحرية أي أنها غالبا ما تعيش محاطة بالماء و غير متصلة باليابسة، وبذلك فهي تفتقر إلى أي امتداد جغرافي مما يجعل الوصول إليها عسيرا.

إحدى تلك الجزر هي جزيرة السعالي التي يقطنها «خلق كالنساء إلا أن لهم أنيابا طولا بادية، وعيونهم كالرق الخاطف ووجوههم كالأخشاب المحترقة»[50]، وليس أقل عجائبية منها جزيرة قلهات التي يعمرها «خلق مثل خلق الإنسان إلا أن وجوههم وجوه الدواب»[51]، والأمر نفسه ينطبق على جزيرة أطوران التي يسكنها «قوم على شكل أبدان الإنسان، ووجوههم كالسباع»[52].

إن الشخصيات العجائبية المذكورة تشبه الإنسان من جهة البدن دون الوجه الذي يكون دائما حيوانيا، وقد يكون وجه اختلاف الشخص العجائبي عن الإنسان من حيث الأفعال والسلوك وليس من الناحية الجسدية، ففي جزيرة زانج ساكنة «تشبه الآدميين إلا أن أخلاقهم بالوحوش أشبه، ولهم كلام لا يفهم، وعندهم أشجار، وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة»[53].

وقد يكون ما يميز الشخصية العجائبية متصلا بإحدى الوظائف العضوية كما هو الحال بالنسبة للتوالد، فنساء إحدى الجزر الخالية من الرجال، «يلقحن ويحملن من الريح، ويلدن نساء مثلهن. وقيل إن بأرض تلك الجزيرة نوعا من الشجر فيأكلن منه فيحملن»[54]. وليس بأقل غرابة من هذا الخبر ذلك الذي نقله ابن الوردي على لسان سلام الترجمان الذي ذكر أنه رأى في بحر الخزر قوما اصطادوا سمكة عظيمة، فلما

وضعوها داخل القارب انتفخت أذنها، «فخرج منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر، سوداؤه، حسنة الصورة طويلة القامة كأنها القمر البدر»[55].

ومن بين الكائنات العجائبية التي ذكرها ابن الوردي الكائن المسمى بالدهلان، «وهو شيطان في صورة إنسان راكب على طير يشبه النعامة»[56]. وقد يكون الكائن العجائبي ذا أصل آدمي لكنه تحول عن طريق المسخ كما حدث للأخوين الساحرين شرهام وشبرام اللذين مسخا على هيئة حجرين منتصبين في البحر[57]، وقد يشمل المسخ قرى بأكملها كما هو لحال لساكنة جبل تلاسيم حيث يزعم أحد الرواة أنه قد رأى فيها حيوانات مختلفة وأناسا مسخوا حجارة[58].

ب-الحيوانات العجائبية

-من حيث الصورة

تكتسي بعض الحيوانات سمة العجائبية بحكم تكوينها الجسدي المفارق لنظيرتها التي ألفها المتلقي، ولعل الرخ أشهر الطيور العجائبية نظرا لامتلاكه جسما عظيما، وبيضته تبدو للناظر كأنها «قبة عظيمة بيضاء لماعة براقة أعلى من مئة ذراع»[59]، ومن الحيوانات البحرية العجيبة التنين الذي يزعم بعضهم أنه دابة عظيمة في «صفة حية سوداء لا يمر ذنبها على شيء من الأبنية العظام إلا سحقته وهدمته، ولا من الأشجار إلا هدتها. وربما تنفست فاحترقت الأشجار والنبات»[60]. وقد بلغ من أذى هذا الحيوان بأهل إحدى الجزر أنهم حاولوا اتقاء شره بتقديم قرابين له، فكانوا يهبون له «في كل يوم ثورين عظيمين ينصبونهما فيأتي إليهما كالسحابة السوداء وعيناه تتوقدان كالبرق الخاطف، والنار والدخان يخرجان من فيه، فيبتلع الثورين، ويرجع إلى مكانه»[61]. كما يشتمل البحر على حيوانات عجائبية أخرى لكنها ليست مؤذية، من بينها سمكة «يقال إن مسافة بين رأسها وذنبها أربعة أشهر»[62]، وهناك كائن بحري غريب يسمى ملكان، وهذه الدابة «لها رؤوس كثيرة ووجوه مختلفة»[63]، ومن عجائب بحر الروم الدابة المسماة بـ«الشيخ اليهودي، وهو حيوان كالإنسان، وله لحية بيضاء وبدن كبدن الضفدع، وشعره كشعر البقر»[64]. أما بالنسبة للحيوانات البرية العجائبية

التي وردت في خريدة العجائب فهي قليلة نسبيا، ويمكن أن نذكر من بينها الدابة المسماة العراج، وهو «مثل الأرنب، أصفر اللون وعلى رأسه قرن واحد أسود لم يرها شيء من السباع الضواري والوحوش الكاسرة إلا هرب منها»[65].

يتبين أن الحيوانات المذكورة إنما اكتسبت صفة العجائبية من جهة هيئتها؛ فالدواب العجائبية تتسم بعظم تكوينها الجسمي الذي يمنحها قوة تدميرية هائلة (التنين، الرخ) كما أن بعضها يتسم بهيئته الغريبة (الدابة ملكان) أو أن منظرها بشع لكونها تجمع بين صفات حيوانات متعددة (الشيخ اليهودي)، وهذه الصفات من شأنها أن تجعل المتلقي يحس بالرعب من جهة وبالحيرة من جهة أخرى.

-من حيث الأفعال

تصدر عن بعض الحيوانات أفعال لا يتوقعها العقل البشري، ومثال ذلك قصة الطائر الذي أنقذ أحد الملوك فراخه من خطر حية مفترسة، فما كان من الطائر إلا أن غاب برهة «وأتى بثلاث حبات عنب في منقاره ورجليه، ورماها بين يدي الملك، فعلم الملك أنها مكافأة له»[66]. وهناك غراب يأتي بأفعال محيرة، وهو يتواجد بجزيرة الكنيسة التي يقصدها بعض المسلمين لزيارة أحد مساجدها، «فإذا قدم زائر للمسجد أدخل الغرب رأسه إلى داخل الكنيسة وصاح صيحات بعدد الزوار... لا يخطئ أبدا»[67]. ويبقى أبرز مثال على الأفعال العجائبية التي قد تأتي بها الدواب ما يصدر عن السمكة المعروفة باسم سيلان، فحسب ابن الوردي فهذه السمكة تخرج إلى اليابسة، وتبقى مدة يومين «حتى تموت، فإذا جعلت في القدر وكان الرأس مغطى نضجت واستوت، وإن كان رأس القدر مكشوفا طارت منه وتختفي فلا يعلم أين تذهب»[68]، وتتمتع الحية عربد أيضا بهذه القدرة العجيبة على الاختفاء، فهي إذا «أخذت وجعلت في إناء وثيق... وسد سدا محكما... وأخرجت من بلاد عمان، عدمت من الإناء ولا توجد فيه، ولا يعرف كيف ذهبت» [69].

3-الأغذية العجائبية

تمتلك بعض الأغذية فوائد ومنافع فريدة تجعل دورها غير مقتصر على إمداد الجسم بما يحتاجه من طاقة للعمل أو النمو؛ فبعض الأطعمة تزيد من القوة الجنسية، وتعمل على تنشيطها لدى الرجال بما في ذلك الشيوخ منهم الذين يفترض- منطقيا- أن الطاقة الجنسية عندهم قد انطفئت. وقد ساق ابن الوردي أمثلة عديدة لهذا النوع من الأغذية العجائبية كما هو الحال بالنسبة للسمك المتواجد ببحيرة تهامة التي إذا أكل الشيخ الهرم من لحمها «أمكنه أن يفتض الأبكار لقوة خاصية هذه السمكة»[70] غير أن مفعول لحم هذه السمكة لا يمكن أن يقارن بثمار شجر جزيرة إقريطش التي إذا أكل منها الرجال «أفادهم القوة في الجماع، وأطاق الواحد منهم أن يجامع في اليوم مائة مرة وأكثر»[71].

تكتسي بعض الأطعمة خاصيتها العجائبية من جهة قدرتها على محو آثار الشيخوخة وبث الحيوية والنشاط في البدن، فمن تناولها استرجع شبابه وقوته ولو كان عجوزا، ومن بين تلك الأغذية القرنفل المتواجد بجزيرة برطابيل، فهو يمنع ظهور الشيب والهرم شرط أن يتم تناوله رطبا[72]، ويماثله في المفعول ثمر يوجد في جزيرة الشجر، وهو يشبه في شكله اللوز «من أكل منه من الرجال والنساء يزداد قوة وشبابا ولا يهرم أبدا ولا يشيب»[73]. ولا تقتصر هذه الخاصية العجائبية على النبات دون الحيوان بيد أنها ترتبط بلحوم حيوانات عجائبية كما هو الشأن بالنسبة للحم فرخ طائر الرخ الذي زعم البعض أن الشيخ الهرم إذا أكل منه، اختفى الشيب من لحيته وأصبح لونها أسودا[74].

هناك أطعمة أخرى تمتلك خاصية استشفائية من جميع أنواع السموم وهو ما يميز أحد ثمار جزيرة الطيور الذي يشفي صاحبه من السم كيفما كان نوعه[75].ومن الأطعمة العجائبية من يؤثر على الإنسان جسديا ونفسيا، وهذا ما تمتاز به نباتات جبل فرغانة؛ فحسب بعض الروايات، فإن تلك النباتات تزيد في القوة على الجماع كما أنها «تزيد في المحبة والقبول»[76].

ثانيا-توظيف العجائبي بين الغاية الدينية والحجاجية

ارتبط علم الجغرافيا في بداياته الأولى بأدب الرحلات[77] حيث حرص بعض الرحالة العرب على تدوين الأخبار العجيبة المتصلة بالبلدان البعيدة بيد أنهم بالغوا–أحيانا– في تتبع مظاهر الغريب والعجيب «لتكون لرحلاتهم قيمة ومآثر تذكر، ولا سيما إذا ما كان الرحالة أو صاحب الكتاب نديما للخليفة أو السلطان أو إذا ما كانت بتكليف مباشر من الخلافة...فلا يستطيع الرحالة العودة صفر اليدين»[78].

ورغم استقلال علم الجغرافيا عن أدب الرحلات، منذ القرن الهجري الثالث، فقد ظل بعض أصحابه مولعين برصد مظاهر العجائبي وتتبع أخباره، ونتيجة ذلك الولع ظهرت كتب متخصصة في عجيب الجغرافيا، ويمكن تصنيفها إلى نوعين رئيسيين «فبعضها يصنف ضمن الكتب ذات الصبغة العلمية، في حين أن البعض الآخر أقرب ما تكون إلى كتب المسامرات والخرافات الشعبية، وهذا النوع الأخير يختص بالمؤلفات الموجهة للعوام، ويغلب عليها الكذب والتلفيق والخيال الجامح»[79].

يقول ابن الوردي في مقدمة كتابه مبينا دواعي التأليف: «**أشار** إلى الفقير الخامل من إشارته الكريمة محمولة بالطاعة على الرؤوس، وسفارته المستقيمة بين الإمام المعظم والسودان الأعظم قد سطرت في التواريخ والطروس وهو المقر الأشرف العالي المولوي الأميني الناصحي السيدي المخدومي السيفي شاهين المؤيد، مولانا نائب السلطنة الشريفة بالقلعة المنصورة الجليلة»[80].

لم يكن، إذن، كتاب ابن الوردي موجها للعوام بل لنائب السلطنة الشريفة وبأمر منه، وبالتالي لا يمكن عد خريدة العجائب ضمن كتب المسامرات والخرافات التي يختلق أصحابها قصصا خيالية أو يبالغون في نقل أخبارهم بهدف إثارة دهشة المتلقي وجذب اهتمامه.

لقد أهدى ابن الوردي كتابه إلى شخصية سياسة تتمتع بسلطة كبيرة، ولذلك كان لزاما عليه تحري الدقة والأمانة في ما ينقله؛ لأن الكذب أو التلفيق كانا سيجرا عليه عواقب و خيمة، وهو عندما نقل الأخبار العجائبية نفى أن يكون قد شاهدها عن قرب؛ فهو لم يكن رحالة ولم تطأ قدماه العوالم العجائبية التي وصفها، ولم يكن طرفا

في الأحداث التي نقلها، وإنما كان كتابه تجميعا لما اطلع عليه في مؤلفات مختلفة يثق في صدق أصحابها سواء كانت جغرافية أم غيرها، و عن ذلك يقول ابن الوردي: «ثم أقبلت على مطالعة حكماء الأنام، وتصانيف علماء الهيئة الأعلام؛ كشرح التذكرة لنصر الدين الطوسي، وجعفر الأنبياء لبطليموس، و تقويم البلاد للبلخي، ومروج الذهب للمسعودي، وعجائب المخلوقات لابن الأثير، و المسالك والممالك للمراكشي، و كتاب الابتداء، وغيرها من الكتب المعينة على تحصيل المطلوب»[81].

إن المطلوب الذي توخاه ابن الوردي هو تجميع الأخبار المتصلة بعجائب البلدان وغرائبها، ولذلك لم يكتف بما وقعت عليه يداه في الكتب المدونة بل اعتمد على ما كان يسمعه من أخبار تناقلتها الألسن، وهي أخبار أضحت في حكم الحكايات المسلم بصحتها، وهذا ما يتجلى في كثرة توظيف ابن الوردي لمجموعة من الصيغ الدالة على النقل الشفهي مثل حكي[82]، يحكى[83]، يقال[84]، قيل وغيرها من الصيغ الأخرى.

وابن الوردي إذ ينقل عن مصنفات أخرى فهو لا يقبل كل ما تضمنته من أخبار عجائبية بل كان يمحصها، ويعمل عقله فيها قبل نقلها، وهو ما جعله يرفض بعضا منها بدعوى مخالفتها للمنطق والعقل كما هو الحال بالنسبة لنهر المنامة الذي بالغ الناس في وصف عجائبه «حتى إنهم قالوا أشياء يجب السكوت عنها»[85]، كما أن ابن الوردي أحجم عن ذكر بعض الأخبار المتعلقة بإحدى المغارات العجائبية؛ لأنها «أشياء لا يمكن ذكرها ويجب السكوت عنها لعدم قبول العقل لها» [86].

لقد كان ابن الوردي مدركا جوانب القصور في المصادر التي اعتمد عليها، وعن ذلك يقول «ومعلوم أن الكتب الموضوعة بين الناس في هذا الغرض لم تخل من خلل والتباس؛ فإن ذلك أمر موهوم لكنه وهم حسن» [87]. فالوهم الذي اشتملت عليه كتب العجائب لا ينفي فائدتها وأهميتها اللتان تتجليان، عند ابن الوردي، في غايتين هما: التفكر في خلق الله وتعظيمه وإقناع المتلقي بأهمية الرحلة.

1-التفكر في خلق الله وتعظيمه

يولد العجائبي إحساسا بالتردد والحيرة؛ لأن المتلقي يجد نفسه إزاء ظواهر تنتمي في الوقت نفسه إلى عالمي الواقع والمستحيل؛ ولا يتخلص المتلقي من حيرته إلا بعد تبني تفسير يرد الظاهرة العجائبية إلى مقتضيات قوانين الطبيعة أو يلحقها بعالم فوق–طبيعي ويشرحها على ضوئه.

إن الخلفية الدينية للمتلقي تجعله يطمئن إلى أن عالمي الواقع والفوق–طبيعي يقعان تحت سيطرة الله ويخضعان لإرادته، ومن تم كان العجائبي، بحكم انتماءه للعالمين معا، خاضعا لتدبير الله وقدرته. ولذلك يمكن القول إن مظاهر العجائبي آيات كونية دالة على وجود خالق مدبر قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء عن التصرف في مخلوقاته، فهو قادر على إخراجها في صور شتى قد لا يتصورها العقل البشري الذي يظل علمه وخياله حبيس الحدود الجغرافية التي تحده.

يعد كتاب خريدة العجائب دعوة صريحة إلى التدبر في مخلوقات الله والتفكر فيها بما يزيد إيمان الفرد ويؤكد القدرة الإلهية؛ فحرص ابن الوردي على جمع الأخبار العجائبية يرجع إلى قيمتها الدينية قبل العلمية؛ إذ إن تلك الاخبار «مما يزيد المرء بصيرة في دينه وتعظيما لقدرة ربه، وتحيرا في عجائب خلقه»[88]. ولم يكن المتلقي ليحس بتلك الحيرة لو أنه ظل قانعا بما يشاهده ضمن نطاقه الجغرافي المعتاد، ففي هذا النطاق تألف العين كل شيء، ولا تعود قادرة على إدراك تفرد الأشياء وأسرارها؛ فغشاوة الاعتياد تحجب جوانب الإبداع في مخلوقات الله، ولا يمكن إزالة تلك الغشاوة إلا بمحاولة اختراق عوالم جديدة وغير مألوفة. ولما كان هذا الأمر غير متاح للجميع، فقد انبرى الجغرافيون لتقريب العوالم البعيدة من المتلقين، وعرض عجائبها كأنها ماثلة للعيان، واعتمدوا في ذلك على مشاهداتهم أو على قراءاتهم كما اعتمدوا على مصنفات أدب الرحلة؛ «لأن ما رآه الرحالة كان شيئا عجيبا حقا بالنسبة إليه، فأكثر الناس حكما بالغرابة هم أكثرهم ترحالا حيث يواجهون الجديد، ويكسرون ألفة المكان والثقافة»[89].

تعددت آيات الله في كونه، وقد عرض ابن الوردي الكثير منها ضمن ما قدمناه ضمن تجليات العجائبي، ويمكن أن نضيف إليها مظاهر أخرى من بينها رمال الضليم، فهي حسب ابن الوردي «آية من آيات الله عز وجل»[90]، والأعجب منها تلك الورود الموجودة بإحدى الجزائر، وهي عبارة عن ورد أحمر كتب عليه «بالأبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله، والكتابة بالقدرة الإلهية»[91].

وهذه القدرة هي ما يمكن أن تفسر به العديد من الظواهر العجائبية التي قد ينكرها العقل البشري كما هو الحال بالنسبة لنهر منامة الذي سبق ذكره، فقدرة هذا النهر على تحصين المغتسل بمائه من جميع الأمراض لا يعدو أن يكون ناتجا عن خاصية أودعها الله فيه دون غيره من الأنهار؛ إذ إن «قدرة الله صالحة لكل شيء خارق»[92].

والمكتشف للبلدان الجديدة لا بد أن تقع عيناه على عجائب النبات والفواكه التي إذا تأملها مليا، وجد فيها برهانا ساطعا ودليلا «على وحدانية الله سبحانه وتعالى... ولا يعلم حقيقة الحكمة فيها إلا الله تعالى، والذي يعرفه الإنسان من ذلك بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من بحر»[93].

تتحول لحظة الحيرة والدهشة من العجائبي الجغرافي إلى لحظة للتأمل في خلق الله والتدبر فيها بما اشتملت عليه من آيات ومعجزات وأسرار تقوي إيمان الفرد وتجعله يدرك أن وراء أسرار الكون عقلا مدبرا يتصرف في المخلوقات كيف يشاء، وأنه لا مجال للعبثية أو الصدفة، فالمخلوقات العجائبية إنما تبدو كذلك للمتلقي بحكم محدودية علمه وعجزه عن تقديم تفسير لما يراه، فيتأكد بذلك جهله من جهة وسعة علم الله وقدرته من جهة أخرى، فيسلم الفرد بمعجزات الله في خلقه.

إن إدراك عظمة الله والإقرار له بالألوهية والوحدانية لا يتأتى عن طريق وصف مخلوقاته العجائبية بل يتحقق أيضا من خلال سرد بعض الأخبار المدهشة التي تجعل المتلقي يحس بالرهبة والدهشة، ومن بين تلك الأخبار قصة الاخوين شرهام وشبرام اللذين إنما مسخا على هيئة حجر لأنهما كان يعترضان سبيل البحارة، فهذا

المسخ يمثل عقابا إلاهيا للمعتدين الظالمين. وهناك خبر آخر أعجب منه يتعلق بصنم في جزيرة القندج «ذكر المسافرون أنه يبكي على قوم كانوا يعبدونه من دون الله»[94].

2-البحث عن الفردوس الأرضي

خريدة العجائب وفريدة الغرائب كتاب جغرافي في الظاهر توخى ابن الوردي منه نقل مجموعة من الحقائق العلمية التي تفسر نشأة الأرض وما تمتاز به البلدان من غرائب المخلوقات الدالة على إبداع الخالق وعظمته، لكنه في الباطن خطاب حجاجي بالأساس غايته الإقناع؛ لأننا «إذا أمعنا النظر في ظاهرة الخطاب الإنساني، فإنه قد يبدو لنا أن أغلب أقوالنا تسعى إلى التأثير في سلوك المخاطبين، بل إن خطابا قد يبدو لنا بريئا من المساعي الحجاجية قد ينكشف أمامنا باعتباره ينطوي على طاقات حجاجية» [95].

لقد سعى ابن الوردي إلى إقناع السلطة بأهمية تشجيع الرحلات الجغرافية والتجارية مع البلدان الموصوفة في الكتاب، وارتكز إقناعه على توظيف صورة الجنة في المخيلة الإسلامية؛ إذ إن طموح الفرد المسلم هو الفوز بالجنة التي تعد بمثابة الفضاء المرغوب، ومن هنا كانت جميع أفعال الفرد الدنيوية تتوخى هذه الغاية وتسعى إلى خدمتها.

إن الجنة، حسب ابن الوردي، ليست مكانا سماويا ينتقل إليه الإنسان بعد موته بل هي أيضا فضاء أرضي يمكن الوصول إليه بعد التحرر من قيود الإطار الجغرافي المعتاد. وقد تجلت صورة الفردوس الأرضي في كتاب ابن الوردي من خلال مجموعة من الموضوعات التي استقاها المؤلف من الخطاب الديني ثم بثها في ثنايا الأخبار والأوصاف الواردة في كتابه، ومن بين تلك الموضوعات ما يلي:

-موضوعة الفضاء الكنز

يعد الذهب من المعادن النفيسة التي تولع الإنسان بها منذ أقدم الحضارات، ولم تكن قيمة هذا المعدن محصورة على العالم الدنيوي بل سيظل كذلك في العالم الاخروي؛ إذ إن لباس أهل الجنة وحليهم من ذهب. وإذا كان هذا الأخير لا يتوصل إليه إلا بعد جهد التنقيب ثم الاستخراج، فإنه في الفضاء العجائبي يظهر بارزا للعيان في متناول اليد، وهو يبرز بكميات كبيرة حتى أنه تحول إلى مادة أولية لبناء القصور الشاهقة، «وكل قصر منها معقود على عمد من زبرجد وياقوت، وفوق كل قصر منها غرف، وفوق الغرف غرف أيضا وكلها مبنية بالذهب والفضة...وقد فرشت أراضيها باللؤلؤ وبنادق المسك والعنبر والزعفران»[96].

يتطابق وصف ابن الوردي لهذه القصور مع تلك الواردة في القرآن الكريم[97] والحديث النبوي الشريف[98]، ولعل هذا الوصف هو الذي دفع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى البحث عن إحدى مدن الذهب بعدما أخبره أحد الأعراب برؤيته لها في مكان غير محدد في الصحراء، فما كان من الخليفة إلا أن وجه «مع ذلك الرجل جماعة من ثقاته، واستوثقوا من الزاد والماء عن شهر، وطافوا تلك الصحاري، فلم يقفوا على شيء من ذلك»[99] ، لكن فشل هذه المحاولة لا يعني أن رحلة البحث عن مدن الذهب قد انتهت؛ فصورة هذه المدن شكلت، عبر التاريخ، حافزا للعديد من الجغرافيين و الرحالة للانطلاق نحو البقاع البعيدة المجهولة طمعا في الثروة[100].

لقد كان ابن الوردي موقنا أن الصورة الفردوسية للفضاء الثمين التي رسختها النصوص الدينية في الذهنية الإسلامية ستدفع السلطة السياسية إلى التفكير جديا في البحث عن مدن الذهب رغم أن العديد منها تندرج ضمن الفضاء السراب الذي ظل ممتنعا على الوصول.

-موضوعة الحور العين

اعتمد ابن الوردي على صورة المرأة الفاتنة أو الحور العين لإبراز أهمية الرحلة والتأكيد على مزايا اكتشاف البقاع العديدة، فهذه البقاع تزخر باللذات التي يطمح كل فرد إلى إشباعها، ومن بينها اللذة الجنسية التي تجسد الحور العين صورتها المثالية

وهي صورة رسخها عدد كبير «من النصوص والمرويات والحكايات والأخبار والطرائف بمختلف مصادرها. ولقد حرص العقل العربي على إنتاج هذا الكم الهائل في كل عصر، بما يخدم أغراضه» [101].

ويبدو أن غرض ابن الوردي من توظيف هذه الصورة هو التحفيز على الانطلاق نحو البلدان البعيدة التي تحفل بالنساء الحسناوات؛ فمملكة كشك «ليس في الممالك أحسن من رجالهم ولا من نسائهم ولا أكمل محاسن ولا أجمل أوصافا ولا أطيب خلوة ولا مضاجعة لنسائها، من الحسن والتيه والصلف واللذة الزائدة الوصف التي لم توجد في سائر نساء الدنيا...وإذا جامع الواحد منهم امرأة فإنه ينسى الدنيا وما فيها إلى أن ينفصل عن المجامعة» [102].

يوظف ابن الوردي أسلوب المبالغة في وصف النساء الأجنبيات اللواتي يتميزن بصفات قل أن رآها المتلقي[103]، فهي صفات فردوسية تحرك المخيلة، تثير الغرائز الدفينة وتشعلها، فتحفز الفرد على الفعل أي الرحلة نحو الممالك التي تقطنها المرأة المرغوبة، ومن الأمثلة البينة على ذلك جزيرة الموجة، فنساؤها «أجمل النساء وأحسنهن خلقا وخلقا... وهذه النساء أعظم النساء أعجازا وأدقهن خصورا، باديات الوجوه، ساحبات الشعور، لا يسترن من أحد» [104]. وقد يكون الرحالة محظوظا إذا رست سفينته بإحدى جزائر البنات حيث تعيش نساء يخرجن من الأشجار «وهن أكمل محاسن وأحسن أعجازا وفروجا، ولهن رائحة طيبة، فإذا انقطعت شعورهن، وقعت من الشجرة عاشت يوما أو بعض يوم، وربما جامعها من يقطعها أو يحظر قطعها، فيجد لها لذة عظيمة لا توجد في النساء»[105].

قد يعتقد المتلقي أن الاستمتاع بهؤلاء النساء يظل حكرا على الشباب أو الرجال الذين يتمتعون بالقوة غير أن تفحص كتاب ابن الوردي سيدرك أن المؤلف استعرض في ثنايا كتابه مجموعة من الأغذية العجائبية التي من شأنها أن تعيد الشباب للشيوخ وأن تمدهم بالقوة اللازمة للنكاح والجماع، ومن تم فالمرأة المرغوبة متاحة للجميع شبابا وكهولا وشيوخا.

-موضوعة الأطعمة والأشربة العجائبية

لا يفتأ الفضاء العجائبي يدهش المتلقي بما يشتمل عليه من أمور لا يتوقعها أو يكون على علم بها لكنها تتبدى له في صور جديدة مدهشة، وهو ما يحفز النفس و يجعلها تتشوق للحصول عليها؛ إذ النفس بطبعها تميل نحو الكمال وتتجه بأنظارها نحو الفردوس، فإذا أعجزها الأمر، حاولت أن تحاكيه على أرض الواقع، ولذلك سعى ابن الوردي إلى التأثير في المتلقي من خلال استحضار صور أطعمة وأشربة تحيل على الجنة الموعودة، وتذكره بها كما هو الشأن بالنسبة لبلاد ألمرية التي «بها أنواع الفاكهة العجيبة التي تأتي من وادي بجاية ما يعجز عنه الوصف حسنا وطيبة وكثرة» [106]، وأرض الأدكش «بها من المواشي و اللبن و العسل لا يوصف»[107]، أما جزيرة البنات فـ«بها أنهار أحلى من العسل و السكر المذاب»[108]، وبجبل قابان «عيون عذبة كأن مياها قد مزجت بالعسل» [109].

إن اعتماد ابن الوردي أسلوب المبالغة إنما يأتي ليعزز قناعة لدى المتلقي مفادها أن أطعمة البلدان البعيدة وأشربتها لا تختلف عن نظيرتها المذكورة في القرآن الكريم سواء من حيث تنوع الفواكه ولذتها أو عذوبة الماء أو حلاوة الألبان والعسل بل إن بعض الفواكه لا يحتاج المرء ليحصلها سوى التفكير فيها دون أن يمد يده لقطفها[110]، وهي صورة تنطبق على ثمار الجنة التي لا تكون مقطوعة أو ممنوعة[111].

لقد شكلت الموضوعات السابقة أهم المرتكزات التي بنى عليها ابن الوردي حجاجه لإقناع السلطة بضرورة تشجيع الرحلات الاستكشافية والتجارية ولم لا حتى الحربية نحو الفردوس الأرضي الذي لا يمكن الوصول إليه بسهولة فطريقه ملآى بالمخاطر و الصعاب(الفضاء المهلك)، والوصول إليه يقتضي المجازفة، وهو بذلك يماثل- إلى حد بعيد- جنة الله، فإذا كانت هذه الأخيرة قد حفت بالمكاره[112]، فإن الجنة الأرضية حفت بالمخاطر، ومن تم كان الفردوس الأرضي من نصيب أصحاب الهمم

العالية[113] ممن لا يهابون الموت، ولا يحفلون بأهوال السفر، حتى إذا أمكنهم الوصول إلى الفضاء العجائبي، وقعت أبصارهم على ما لا يمكن و صفه[114].

خاتمة

يجمع كتاب ابن الوردي بين ما هو جغرافي وما هو أدبي ممثلا في العجائبي الذي يخلق حالة من التوتر لدى المتلقي الذي يصطدم بما هاو غير مألوف في حيزه المكاني، وقد للعجائبي تجليات ومقاصد؛ فبالنسبة للتجليات فقد كان الفضاء أبرز عنصر عجائبي، وهذا أمر مبرر لأن مجال التأليف هو الجغرافيا، ثم تليه المخلوقات والأغذية العجائبية. ويلاحظ أن ابن الوردي وظف أسلوب المبالغة بشكل كبير في عرض تلك التجليات. أما بالنسبة لقصد الكاتب من وراء التركيز على البعد العجائبي فيتعلق أساسا بإقناع المتلقي بأهمية السفر والرحلة، والدعوة إلى التفكر في خلق الله والتدبر في آياته الكونية.

الهوامش

[1] علي بن عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، ط2، 1993، ص48

[2] صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي: سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999، ص 230

[3] محمود أبو العلا، الفكر الجغرافي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1998، ص 15-17

[4] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط3، ص 18

[5] عرف سعيد يقطين السرد **بأنه نقل الفعل القابل للكي من الغياب إلى الحضور، وجعله قابلا للتداول سواء كان هذا الفعل واقعيا أو تخييليا، وسواء تم التداول شفاهة أو كتابة** (السرد العربي، ص61)

[6] ينظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص 78

[7] عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984، ص 38

[8] سعيد يقطين، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2012، ص 64

[9] مقدمة كتاب خريدة العجائب، ص 8

[10] Denis Mellier, La littérature fantastique, Edition Seuil, 2000, p4

[11] تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، دار الكلام، الرباط، ط 1، 1993، ص 54

[12] المصدر نفسه، ص 65

[13]لؤي علي خليل، العجائبي والسرد العربي: النظرية بين التلقي والنص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، ط1، 2014، ص 116
[14] حسين علام، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، الدار العربية ناشرون، الجزائر، ط1، 2009، ص 116
[15]ا سراج الدين ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008، ص85
[16]المصدر نفسه، الصفحة نفسها
[17]المصدر نفسه، ص 92
[18]المصدر نفسه، ص 208
[19]المصدر نفسه، ص 239
[20]المصدر نفسه، ص 184
[21]المصدر نفسه، ص 154
[22]المصدر نفسه، ص 203
[23] المصدر نفسه، ص 81
[24] المصدر نفسه، ص 79
[25] المصدر نفسه، ص 220
[26] المصدر نفسه، ص 225
[27] المصدر نفسه، ص 185
[28] المصدر نفسه، ص 183
[29]المصدر نفسه، ص 206
[30] المصدر نفسه، ص 263
[31]المصدر نفسه، ص 216
[32] المصدر نفسه، ص 249
[33] المصدر نفسه، ص 254
[34]المصدر نفسه، ص 250
[35] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[36] المصدر نفسه، ص 239
[37]المصدر نفسه، ص 219
[38] المصدر نفسه، ص 78
[39] المصدر نفسه، ص 225
[40] المصدر نفسه، ص105
[41]المصدر نفسه، ص 108
[42] المصدر نفسه، ص 182
[43]المصدر نفسه، ص 54
[44]المصدر نفسه، ص 128
[45] المصدر نفسه، ص 287
[46] المصدر نفسه، ص200
[47] المصدر نفسه، ص 262
[48] سعيد يقطين، مرجع سابق، ص 99
[49]حسن علام، مرجع سابق، ص208
[50] ابن الوردي، مرجع سابق، ص 195

[51]المصدر نفسه، ص 197
[52]المصدر نفسه، ص208
[53]المصدر نفسه، ص 199
[54]المصدر نفسه، ص 208
[55]المصدر نفسه، ص 244
[56]المصدر نفسه، ص 225
[57] المصدر نفسه، ص 197
[58]المصدر نفسه، ص289
[59] المصدر نفسه، ص 202
[60] المصدر نفسه، ص 244
[61] المصدر نفسه، ص 196
[62]المصدر نفسه، ص 198
[63]المصدر نفسه، ص 210
[64]المصدر نفسه، ص 240
[65]المصدر نفسه، ص 197
[66]المصدر نفسه، ص 327
[67]المصدر نفسه، ص 240
[68]المصدر نفسه، ص 211
[69]المصدر نفسه، ص160
[70]المصدر نفسه، ص182
[71] المصدر نفسه، ص 238
[72] المصدر نفسه، ص215
[73]المصدر نفسه، ص 225
[74] المصدر نفسه، ص 202
[75] المصدر نفسه، ص 197
[76] المصدر نفسه، ص 288
[77] ينظر: الرحلة وفتنة العجيب، ص 57
[78]نوفل محمد نوري، الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين في العصر العباسي بين الأسطورة والحقيقة (دراسة تحليلية)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد 11، العدد1، ص 252-251
[79]حسين فوزي، حديث السندباد القديم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1943، ص 34
[80] ابن الوردي، مرجع سابق، ص 22
[81]المصدر نفسه، ص 23-24
[82] المصدر نفسه، ص78-138-260
[83] المصدر نفسه، 79-80-160
[84] المصدر نفسه، ص 84-92-102-109-128-137
[85] المصدر نفسه، ص 83
[86] المصدر نفسه، ص 183
[87] المصدر نفسه، ص 24
[88]المصدر نفسه، ص 48

[89]خالد التوزاني، الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2017، ص 16
[90] ابن الوردي، مرجع سابق، ص 96
[91]المصدر نفسه، ص 217
[92] المصدر نفسه، ص 183
[93]المصدر نفسه، ص 304
[94]المصدر نفسه، ص 226
[95] محمد الولي، مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو و شايم بيرلمان، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر-ديسمبر 2011
[96]ابن الوردي، مرجع سابق، ص 154-155
[97]يقول تعالى في سورة الزمر: لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ (الآية 20)
– [98]عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله... الجنة ما بناؤها؟ قال :«لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالياقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلا يَبْأَسُ، وَيُخَلَّدُ وَلا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُمْ» .أخرجه الترمذي والدارمي.
[99]ابن الوردي، مرجع سابق، ص 79
[100] يمكن أن نذكر في هذا المجال أسطورة مدن الذهب التي شكلت حافزا للعديد من الرحلات الأوروبية خصوصا الإسبانية للإبحار نحو أمريكا اللاتينية
[101]عقيل عبيد، صورة الجنة في المخيال الشعبي، مجلة القادسية لعلوم الإنسانية، المجلد 16، العدد2/ 2013، ص515(
[102]ابن الوردي، مرجع سابق، ص177-178
[103]يلاحظ أن طارق ابن زياد وظف الأسلوب نفسه لحث جنوده على فتح الأندلس، حيث يقول: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان (الوافي بالوفيات، ج20، ص 254)
[104] ابن الوردي، مرجع سابق، ص 206
[105] المصدر نفسه، 205
[106] المصدر نفسه، ص 70
[107] المصدر نفسه، ص 182
[108] المصدر نفسه، ص205
[109] المصدر نفسه، ص 136.
[110]المصدر نفسه، ص 152
[111] قال تعالى: وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة (سورة الواقعة، الآية 32)
[112]روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها(2174 /4))
[113] ابن الوردي، مرجع سابق، ص 22
[114] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))؛ رواه البخاري